وردة اليازجي

(٣)

شعرها

(١) ورود المجامة الصافية

كل ما نظمتهُ ينقسم الى قسمين : المدح والرثاء

في باب المدح يدخل شعر التقريظ والترحيب والتراسل مع أدباء العصر وأديباته. فهي تستهلّ حديقتها بأبيات ردّت بها على الشاعرة وردة ابنة نقولا الترك الشاعر. والشطر الاول من المطلع سار في الآداب السورية مسير الامثال وصار اسماً للسيدة وردة . وهو :

يا وردة الترك ، اني وردة العرب ... فبيننا قد وجدنا أقرب النسب
أعطاكِ والدكِ الفنّ الذي اشتهرت ... ألطافهُ بين أهل العلم والادب

وقالت نجيب شاعرة أخرى، وردة كبا (ويظهر ان الشعر في ذلك العصر كان محظوظاً « بالوردات ») — :

أزهار ورد قطفناها بأبصارِ ... ونشر ورد شممناهُ بأفكار
ووردةٌ أثمرت في القلب إذ غرست ... ولم أرَ وردةً تأتي بأثمار
لقد سمت في الورى قدراً ، فلا عجب ... فالوردُ بين الورى سلطان أزهار

ولئلاّ تؤاخذ هنا بامتداح نفسها عن طريق غيرها فقد استدركت في الختام بقولها :

بيني وبينكِ في أسمائنا نسبٌ ... لكنما بيننا فرقٌ بأقدار
والورد من بعضهِ النسرين يشبههُ ... في العين ، لكنهُ من طيبهِ عار

هذا اسلوب من التواضع في الشعر العربي . ونجدهُ كما نجد معاني المدح ذاتها مكرّرة تقريباً في كلّ قصيدةٍ وجهتها الى مراسليها ومراسلي والدها من مصريين وعراقيين وسوريين . فقد ردت على عالم من اصدقاء والدها بقولها :

سلام فاح كالورد النضير ... يساقُ لذلك الربع الخصيب
الى من في الكمال لهُ صفات ... كمسكٍ فاح منهُ كلُّ طيب
فضائلهُ كضوء الشمس تجري ... ولكنّ لا تصادف من غروب

وتهدي الى امين بك سيد احمد في الاسكندرية نسخة من ديوانها فتقول :

هذي حديقة ورد قد نمتُ بها ... الى حديقة فضلٍ في الورى عظُما
سيّرتها نحو غيثٍ طاب موردهُ ... مشفوعةً شاه أشبه النسما
يشدو بها كلُّ بيتٍ في مناقبهِ ... حلا بوصفك نظم الشعر فابتسما

وجواباً على رسالةٍ أخرى من أديب مصري :

أهلاً بخودٍ الينا أقبلت سحراً ... زهو كبدر الدجى تحت الظلام سرى
أرى عليها لآلي النظم زاهرةً ... من بحر علم يروق السمع والبصرا
جاءت من البحر فوق البحر زائرةً ... فليس عجب ان اهدت لنا درراً

وقالت مرحبة بالاميرة تاج الشهابية وقد جاءت « رأس بيروت » :

مالي أرى الرأس من بيروت مبتسماً ... والزهر ينبتُ فوق الروض افواجا
وقلت ماذا اقتضى هذا السرور لها ... قالوا رأت في أعالي رأسها تاجا

ورحلت تلك السيدة إلى مكان يقال لهُ « الوادي » فقالت الشاعرة :

تحية من مشوق زائد الغلل ... تهدى الى تاج مجد من ذوي الدول
لطيفة الذات يهديها النسيم إلى ... وادٍ لهُ الشوق في الاحشاء كالجبل
الى التي صار قلبي اليوم مسكنها ... كأنها الشمس حلّت منزل الحمل

واصغين جيداً الى هذا البيت :

يا من بها زهت الايام قائلةً ... لا تحسبوا انّ كلّ الفضل للرجل

وحيّت البرنسس نازلي المصرية يوم زارت لبنان كما حيّت الاميرة نايلة شقيقة السلطان عبد الحميد . ومما قالتهُ في الترحيب بها :

يا ثغر بيروت البهيج ، تبسّم ... وتجمد خالقك الكريم ترنّم
اليوم زارتك المليكة فاكتست ... شرفاً ربوعك بالطراز المعلَم
هي غصن دوحة آل عثمان أُلالى ... شادوا فخاراً ليس بالمتهدّم
قومٌ لهم شرف الخلافة والعلى ... بين الملوك من الزمان الاقدم

ومنها هذا البيت الذي اودُّ ان اوجّههُ الى كلّ فاضلةٍ من اخواتنا المحجوبات :

خودٌ بدت تحت اللثام ، وبجدها ... قد لاح بين الناس غير ملثم

وجواباً لمسى افندي اسكندر المعلوف المؤرّخ والعضو في المجمع العلمي بدمشق:

أهلاً باكرم غادةٍ اهدى بها المولى الخطير

. . . . . .

باتت تطارحني حد يثاً رقّ كالماء النمير
عذبٌ يروق زلالهُ وردٌ، ويُشرب بالضمير
من كلّ قانية بدت كالزهر في الروض المطيرْ
ولطيف معنىً كالنسيم جرى بانفاس العبيرْ
خلعت عليَّ من الثنا ثوباً يمرسلها جديرْ

وقالت مقرّظة تاريخ الصحافة العربية للڤيكونت فيليب طرازي، وقال لي حضرتهُ ان هذه الابيات آخر ما نظمتْ

ياذا الهمام الذي احيت عنايتهُ تاريخ كتّابنا من سالف الزمن
خلّدت ذكر الصحافيين فيهِ كما أوليتهم منةً من اعظم المنن
فلترو فضلك منهم ألسن بقيت وليشكر تُلك عظم في التراب فني

وقالت حينما انتخب دولتلو سليمان افندي البستاني مبعوثاً عن بيروت:

اخلق ببيروت دار العلم من قدم ان تصطفيك على الايام معوانا
فالله لما ارتأى إعلان حكمتهِ ما اختار من شعبهِ الاّ سليمانا

ومن اهمّ هذه المجاملات ما واسلت بهِ الشاعرة المصرية عائشة عصمت تيمور التي اثنت عليها في مقدّمة ديوانها « حلية الطراز » ثم اهدت اليها نسخة منهُ. فعقب ذلك مراسلة لطيفة في الشعر والنثر حيث تبارت كل من الشاعرتين في مدح صاحبتها وتنضيد القول. وقد اثبتت هذه المراسلة زينب فواز في « الدرّ المنثور ». اما في « حديقة الورد » فلا نجد الا قصائد اليازجية الى التيمورية. ومنها شكراً على الهدية:

قد اعاد الزمان عائشةً فيها فعاشت آثار علم قديم
هام قلبي على السماع وامسى ذكرها لذّتي وفيهِ نعيمي

وردّاً على رسالة:

يا نسمةً من ارض وادي النيل وردت فاطفت بالسلام غليلي
نفحت بلبنان نفاح أريجها سحراً بأشهى من نسيم أصيل

. . . . . .

عزّ اللقاء على المشوق وللمنى عندي حديث ليس بالمملول
وعلام لا اهوى علاكِ وما الذي بهواي فيك ترى يقول عذولي ؟
أنت الفريدة في النساء فكيف لا أهوى حبيباً بات دون مثيل ؟
علّمتني قول النسيب، وعجت بي ما هاج حبٌّ بثينة بجميل
شوقي لمجلسك الكريم ، وانهُ شوق الطروب الى الكؤوس شمول

ثم تشكر على ما في الرسالة من ثناء شعريّ :

ولقد أفضتِ عليّ منكِ لآلئاً حسدت بها جيدي كرائمُ جيلي
من كلّ قافية كأبكار الدمى ترنو اليّ بناظرٍ مكحول
وافت تحييني فأحييتُ مهجةً طابت بلثم المرشف المعسول
بذلت لي الودّ الذي استمنحتهُ فهتفتُ يا بشرى بأكرم سول !

وفي قصيدة اخرى شكراً على كتاب « نتائج الاحوال » :

فتاةٌ زيّنت جيد المعالي بدرٍّ من حلى الآداب رطب
أهيم بها على بُعد ، وماذا على الاقدار لو سمحت بقرب؟
على مصر السلام وساكنيها وما في مصر من ماء وتُرب
على ربع به قلبي مقيمٌ ومن لي ان اقيم مكان قلبي
. . . . . .
رأيت نتائج الاحوال فيهِ ممثّلةً تلوح بغير نُقب
لتيمورية العصر المحلّى بما نسجت يداها كلّ حقب
أديبة معشرٍ شرُفت أصولاً وسادت بين اقلام وكتب

ولا ندري ما إذا اجتمعت الشاعرتان بعد هذه المراسلة يوم جاءت وردة اليازجي مصر سنة ١٨٩٩ قبل وفاة عائشة تيمور بثلاثة أعوام . ففي أبيات الحنين الى مصر لهجة صادقة رغم ان موضوع الابيات من الموضوعات التي تتطلب المجاملة ، لاسيما في ذلك العصر حيث لم يكن الصدق غرض الشاعر وكان يندر من الكتّاب الذي يعنى بأمانة التفكير والتعبير . أقول « في ذلك العصر » مع تمام العلم بأن اكثر ما يتهادى الادباء والشعراء في أيامنا من هذا النوع وان صار بعضهم أحرص على كرامة آرائهم واحساساتهم .

(ب) ورود المودة والشوق

قالت اليازجية التيمورية :

علمتني قول النسيب ، وعجت بي ما هاج حبٌّ بثينةٍ بجميلِ

إلاّ اني اشك في ان التيمورية وجدها هاجت عند « وردة العرب » ما هاج « حبٌّ بثينة بجميلِ » . وأرجح انها ككلّ قلبٍ حساس تعلمت ذلك القول في احتياجها اليهِ . لان الحبّ عاطفة طبيعية لا بدّ ان تستوفي حقّها من الوجود بصورةٍ من الصور . وقد كتبت في المودّة والشوق أبياتاً قلائل الاّ انها تستمدّ من عاطفة تملأ القلب رغم التقيُّد في التعبير عنها بالمعاني والاستعارات المألوفة . ففي معارضتها لقصيدة ابن زريق البغدادي حيث نجد ما لا مندوحة عنهُ من جريان « الادمع كغوادي السحب » و « ذوب الاضلع من الاشواق » ، إذا بنا نمرّ على هذا البيت البسيط الصادق حيث نعلم ان القلب المحبّ :

ما زال يصبو الى ربع أقام بهِ قلبٌ لهُ ساقَهُ شوقٌ يشيّعهُ

ليس هذا البيت من اجمل ابيات وردة اليازجي ولكنهُ من اصدقها . وهي وان أخطرتنا في العنوان ان الابيات قيلت في « صديقة » فنحن ندرك ان منها ما هو موجه الى « صديق » . وانما أخفيت وراء برقع التأنيث في العنوان مجاراة لحكم المجتمع الذي كان يقضي على المرأة بكتمان عواطفها — حتى في الشعر . أيمكن ان يكون هذا الخطاب « لصديقة » :

رحل الحبيب، وحسن صبري قد رحلْ فمتى يعودُ الى منازلهِ الأول
وتضيء أرضٌ أظلمت من بعدهِ وتقرُّ عيني باللقا قبل الاجلْ
. . . . . .
يا غائباً والقلب سار بأثرهِ شوقي مقيم في فؤادي كالجبل
إن كنتَ غبت عن العيون مهاجراً فجميل شخصك في فؤادي لم يزلْ

أما كيفية سير القلب في إثر « الغائب » واقامة الشوق في ذلك القلب باسم « الفؤاد » « كالجبل » ، أي كيف يذهب القلب ويبقى في آن واحدٍ وفي بيتٍ واحد ، فمن الامور التي لا يعرف اسرارها الاّ الشعراء والعاشقون

وفي رسالة فراق اخرى :

مني السلام على ديار أحبتي كللك تحمله الصبا اذ هبت
قسماً بذاك الربع ، قلبي ما صبا إلاّ لربع في رباهُ حنيتي
يا حبّذا تلك الديار وان تكن ذابت عليها بالصبابة مهجتي !

ومثلها :

مني السلام على الذي هجر الحمى .....
الشوق زاد من البعاد تحسّراً والدوم صار على العيون محرّما
والصبر عيل لهجره ولبعده والبدر غاب وقطرنا قد أظلما
يا راحلاً أضحى فؤادي عنده وبقيت من وجدي اراعي الأنجما
.....
فمتى أفوز من الحبيب بنظرة وتقرُّ عيني بعدما قطرت دما
طال البعاد على الكئيب المرتجي ان يجعل الله اللقاء مقدّما

واخرى :

جزْ يا نسيم على وادي النقا سحرا وسل عن الصحب هل تلقى لهم خبرا
وحيّهم عن محبٍّ لا يزال على عهد المودّة ، طال البعد ام قصُرا
.....
يا جيرة الحيّ ، هل عودٌ نؤمله ويا ليالي الهنا ، هل ترجعين ثرى ؟
أحبابنا ، ما امرّ العيش بعدكم وهل يطيب لقلب بات منفطرا ؟

واليكَ نشيد الابتهاج بالعودة بعد البعاد :

زار الحبيبُ فزار اجفاني الكرى ودنا سرورٌ كان عن قلبي سرى
.....
أهلاً بمن اخذ القلوب وديعةً وأعادها معهُ تخوض الابحرا
إني ظننت لقاهُ وهماً كاذباً إذ كان في عيني يظلُّ مصوّرا
.....
أهديتهُ درَّ الكلام منظماً يبدو لدى درر الدموع منثرا
لا ردّ ايام النُّوى بعد اللقا من ردّ أيام اللقا بعد النُّوى

وجميع هذه المعاني على سذاجتها هي اول ما يخطر للمحبّ شاعراً كان ام فيلسوفاً ام فلاحاً اميّاً يعمل في الغيطان . لان عاطفة الحبّ التي تفتح للنفس آفاقاً فيحاء لامعة تترقرق فيها عجائب الوجود ، تحوّل في الوقت نفسه الحياة الى ابسطها بتحويلها مجموع الانسانية وحصرها في شخص واحد، وعاطفة واحدة، وامل واحد

ولكن مرّ على « وردة العرب » زمن الصبا والكهولة ، واستقرّت العواطف بحكم الايام وحكم الاحزان . وسكنت الاسكندرية على مقربة من ولدها فاذا بتذكارات الشباب تعاودها منغّصة في قلبها النغم الايقاع والموسيقى الشعرية تكتب في التذكار والشوق الى لبنان :

يا رُبى لبنان ، حيّاكِ الحيا ... وسقى تربك حنّان الغمامْ
يا ربوع الانس، يا دار الصفاء ... يا جنان الخلد ، يا أهنا مقام
حبّذا لبنان مع غاباته ... حبذا تلك الصحارى والاكام
. . . . . .
وخرير الماء في تلك الربى ... كحنين من محبٍّ مستهام
حبذا منهُ ربيع قد حكى ... معرض الازهار يزهو بابتسام
. . . . . .
أنت لي يا خير أرضٍ جنّةٌ ... جمعت كلّ سرور وسلام
حبذا ايام إنس فيك يا ... وطني المحبوب زالت كالمنام
طالما هيّج لي تذكارها ... شجناً يشعلُ في قلبي ضرام

(ج) وورود الغم والحزن

وهنا ننتقل الى الورود القاتمة ، ورود الموت والتأبين المنثورة على القبور . وقصائد الرثاء هي النصف الاكبر من هذا الديوان . وجرت الشاعرة في هذه القصائد على عادة عصرها في تأبين العظماء والعلماء والاصدقاء وفي وضع تواريخ الوفيات وللاضرحة . وتبدأ هذه المراثي عادةً بالحكم الشائعة في فلسفة الموت والعجز عن مصارعته وفي انهُ لا يرحم احداً . كقولها في رثاء هارون النقاش :

الموت للناس كالجزّار للغنم ... فليس يترك من طفل ولا هرم

وفي رثاء الامير أمين رسلان اللبناني :

كأس المنية دائرٌ بين الورى يسقي الكبير ولا يفوت الاصغرا
ما هذه الدنيا بدار اقامةٍ الاّ كطيف الحلم في سنة الكرى
كلٌّ على هذا الطريق مسافرٌ لا بد منهُ مقدّماً ومؤخراً
الموت لا يبقي صحيحاً سالماً إلاّ اتاهُ بعلةٍ فتكسرا
هذا امير المجد بات موسّداً بضريحهِ المبرور محلول العرى
هذا هو السيف الصقيل أصابهُ سيف من القدر الذي قد قدرا

... ...

يا من تيتمت البلاد لفقدهِ وتوشحت ثوب الحداد الاغبرا
كانت بامداد الامين أمينة والدهر لم يمدد اليها خنصرا

وفي رثاء السيدة كاتبة يسترس :

داعي المنيّة في البرية قد دعا ليلبّه الفرقان في سنة الكرى
سكر الجميعُ بحبّ ذي الدنيا فما فاق امروءٌ منهم ولا احد صحا
في كلّ يوم قام ميتٌ منذرٌ يدعو، وما من سامع ذاك الدعا

وهذا البيت الجميل في بساطته ومتانته :

يشقى ويبني المرءُ طول حياتهِ والموت يأتي هادماً ما قد بنى

والغريب انها تجد سبيلاً الى تفسير الموت على ذلك النحو الحكيم عند رثاء طفل لها تقول انهُ كان في غاية الذكاء :

زوّد النفس قبل شدّ الرحال انّ هذي الحياة طيف خيال
واصحبن التقى امامك مصبا حاً لتجلو ظلام تلك الليالي

وبعد عشرة اسطر بهذه اللهجة تخاطب الطفل قائلة :

يا هلالاً قد احتوى نور بدرٍ كيف لو تمّ نورُك المتلالي؟

وليس هذا الطفل بالعزيز الوحيد الذي خلّف لها الحسرة ، بل تعُدّ وردة اليازجي بحقٍّ شاعرة الرثاء والتأبين، فهي رثت اخوتها الستة وأختاً ، ورثت والدها وزوجها وولدين لها وبنتاً. فتقول في رثاء اخيها حبيب الذي كان شاعراً أيضاً :

يا عين وردة ، في الاسحار والأصُل ابكي لفقد حبيب عنك مرتحل
ويا فؤادي ، تفتّت بعد مصرعهِ فان سيف المنايا سابق العذل

ويا سلوةً ابتعد عني مهجتي ابداً ويا دموع ازلي كالعارض الهطل
ويا حمائم نوحي واندبيه معي وغرّدي بالاسى والحزن ، لا الجذل

. . . . . .

يا فارس اليوم ابشر قد أتاك على قرب حبيبٌ ، فلا تشكو من الملل
بدران أظلمت الآفاق بعدهما في مقلتيَّ ، وضاقت بالاسى سبلي

اما فارس الذي تذكرهُ فهو اخ لها توفي قبل حبيب

وفي رثاء اخيها نصّار وقد توفي بمدينة زحلة :

يا ويح قلبي كم سهم اصيب بهِ فلم يزل بدماه الجفن يختضبُ
مصائب لستُ ادري من تكاثرها فيهِ على أيها أبكي وأنتحبُ
يا ارض زحلة ، لي في حبها شغف إذ في حماها شقيق الروح محتجبُ
أرض لروحي في اكنافها سكن لذاك قلبي لهُ في حبها اربُ

. . . . . .

يا قلب صبراً على ما قد اصبت بهِ ولا ترُعك البلايا وهي تعتقبُ
قد عوّدتك الليالي الحزن من صغر حتى غدوت الى الاحزان تنتسب

وهذا المعنى الاخير كررتهُ في مرثاة اختها راحيل :

قد اعتاد قلبي الحزن من صغر منهِ فلم يدر ما طعم المسرّة في العمر
فيا ليت كلي ألسن تنظم الرثا لتعرب عن احزان قلب بلا صبر
ارى الموت احلى من حياةٍ حزينةٍ عمرٌ ليالها امرّ من الصبر
لئن جفّ دمع العين مني هنيهةً ففي القلب دمع سائل ابداً يجري

. . . . . .

فيا اغصن البان ، اندُبنَّ معي على غصين تلقّتهُ يدُ البين بالكسر !
ويا زهرُ فلتذبلْ ، ويا زُهر فاغربي على من كزهر الروض كانت وكالزُهر !

وفي رثاء والدها :

تكاثرت الاحزان في كبدي الحرّى وزادت دموع البين في عيني الكرى
وجارت على ضعفي الليالي وأوقدت بطيَّ فؤادي من نوائبها جمرا

. . . . . .

فقدتُ أبي مالي وللعيش بعدهُ فوقي من عيشي غدا بعدهُ أحرى

حياة الحزين القلب موتٌ ، وموتهُ حياة يلاقي عندها الراحة الكبرى

. . . . . .

أيا عَلَم الشرق المبجَّل ، والذي أقرَّت لهُ بالفضل كلُّ الورى طُرًّا

. . . . . .

ويا من عسراهُ تيتمت العُلى كما يتمَّ التأليف والنظم والنثرا
لقد ملتَ يا ركن العلوم فاوشكت لفرط الاسى أوراقهُ تذهب الحبرا
وقد غصت من خمر المنون بسكرة فها أنا لم أبرح بخمر الاسى سكرى

وفي رثاء أخيها خليل الشاعر :

ألا ايها القلب الحزين ، الى متى تقاسي خطوب الدهر منقضَّة تترى
تراكمت الارزاء من كلّ جانبٍ عليك ، فلا يوم يمرُّ بلا ذكرى
فهلاَّ براك الله من جنب صخرةٍ تمرُّ عليك الحادثات فلا تُغرى

. . . . . .

سلام على وجه الخليل ، وناره بطيِّ الحشا قد أفنت القلب والصدرا
على وجهه الضاحي الوسيم الذي لهُ بقلبي رسمٌ لا يفارقهُ العمرا

وهكذا تراها تهتدي شيئاً فشيئاً الى التعبير البليغ المجرَّد من التعمل لان الشعور بالحزن لا يترك مجالاً للتطويل . فتقول في رثاء زوجها :

كلما كاد يضمد الجرح ترميني بجرحٍ مفتت الاكباد
نكبة عند نكبةٍ عند أخرى كاتصال الاسباب بالاوتاد
وابى الدهر أن يمنّ بنظم غير نظم الرثاء والتعداد
سلبتني المنون انسان عيني ورفيقي وعمدتي وعمادي
يا ليتي في شدتي ورخائي ولصبري في النائبات الشداد
كيف غادرتني بقلب جريح يتلظّى في مثل جمر القتاد ؟
كيف أغمضت طرفك اليوم عني وغدا القلب منك مثل الجماد ؟

كلُّ هذا كلام صادق مملوء بالعبرات السخينة ، عبرات من رثت كثيراً من رجالها وما زال القدر العنيف يرغمها على رثاء البقية الباقية . على ان أجمل مراثيها وامتنها نظماً واشبهها عاطفة ، ولو ان المعاني منها غير جديدة لنا ، قيلت في ولدها امين شمعون ، وفي أخيها الشيخ ابرهيم (كما سيجيء في الجزء التالي) (ي)